

دلالة القرآن والسنة على القدر

The meaning of the Qur'an and Sunnah on destiny

د. محمد الغريسي (تونس)

باحث بمدرسة الدكتوراه - جامعة الزيتونة تونس

ghrissimohamed22160187@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/03/03 تاريخ القبول: 2025/04/22 تاريخ النشر: 2025/06/08

ملخص:

إنَّ شعور الإنسان بأنَّ له القدرة على فعل الفعل أو الامتناع عنه فضلا عن شعوره بأنَّ له إرادة تمكَّنه من فعل ما يريد وترك ما لا يريد من الأفعال الاختيارية و لكنَّ ذلك لا يمنع شعوره بقوة خفية قادرة على دفع الإنسان نحو الفعل مثلما هي قادرة على الحيلولة دون تحقُّق إرادته من فعل الفعل. هذا ما يوهم بوجود تنازع في الإرادات الأمر الذي ازداد تعقيدا مع وجود آيات كثيرة يفهم من ظاهرها أنَّ الإنسان حرّ مخير وبين آيات أخرى ظاهرها يوحي بأنَّ الإنسان مجبر أو هو كالريشة في مهبِّ الرِّيح لا يملك من أمره شيئا.

و من هنا بدأ التساؤل عن أفعال العباد و علاقتها بمشيئة الله وقدرته : فهل النَّاس مجبورون عليها أم أنَّ لهم قدرة؟ وإذا كان الأمر كذلك فما حدود القدرة البشرية مقارنة بالقدرة الإلهية؟ أي كيف يوفِّق الإنسان بين كون فعله داخل تحت عموم قدرة الله ومشيئته و بين كونه قادر على الفعل أو الامتناع عنه؟ و هل أنَّ أفعال العباد مستثناة من عموم مشيئة الله و قدرته؟

إنّ هذه الأسئلة وغيرها لم تكن وليدة ترف فكريّ في المجتمع الإسلاميّ بقدر ما كانت نتيجة لتفاعل ثلاثيّ يجمع الإنسان بالنصّ و بالواقع ممّا يدعونا إلى التّساؤل عن بواعث و علل البحث في أفعال العباد و خاصّة تلك التي تتعلّق بالبعد السّياسيّ.

الكلمات المفتاحية: القرآن والسنة، عقيدة القدر، الجبر والاختيار، الفرق الكلاميّة...

Summary:

A person's feeling that he has the ability to do an action or abstain from it, in addition to his feeling that he has a will that enables him to do what he wants and abandon the voluntary actions that he does not want, but that does not prevent his feeling of a hidden force that is capable of pushing a person towards action just as it is capable of preventing... Without his will being achieved by doing the act. This is what gives the illusion of the existence of a conflict of wills, which has become more complex with the presence of many verses that appear to mean that man is free and has a choice, and among other verses whose appearance suggests that man is forced or that he is like a feather in the wind and has no control over anything.

From here began the question about the actions of the servants and their relationship to God's will and His ability: Are people forced to do them or do they have the ability? If so, what are the limits of human ability compared to divine ability? That is, how does a person reconcile the fact that his action falls under the general power and will of God and the fact that he is capable of doing or abstaining from doing so? Are the actions of the servants excluded from the generality of God's will and power?

These and other questions were not the result of intellectual luxury in Islamic society as much as they were

the result of a three-way interaction that brings together the human being, the text, and reality, which calls us to question the motives and reasons for research into the actions of the people, especially those related to the political dimension.

Keywords: The Qur'an and the Sunnah, the doctrine of predestination, coercion and choice, theological groups...

مقدمة:

تعدّ عقيدة القدر من القضايا الأساسية التي تناولها المتكلمون في تاريخ الفكر الإسلامي نظرا لما تثيره من إشكالات فلسفية وعقدية تتعلق بالحرية البشرية والمسؤولية والعلم الإلهي والإرادة فضلا عن كونها أحد أبرز الموضوعات التي تناولها المتكلمون في التراث الإسلامي لما لها من تأثير كبير على تصوّر الإنسان للعالم وفهمه للعلاقة بين الخالق والمخلوق وحيثيته ومسؤوليته، وفي هذا الإطار يتنزّل هذا البحث الموسوم بدلالة القرآن والسنة على القدر والذي سندرس فيه معنى القضاء والقدر ثم نعرّج على دلالة النصوص التأسيسية على القدر.

أولاً: معنى القضاء والقدر

ورد لفظ القضاء في اللغة بمعاني مختلفة منها الصّنع والحكم (الأزهرى، 2001، 69/4) والحثم (الجوهري، 1987، 5/1892) والبيان والفصل (العسكري، 190/1)... و اعتبر ابن منظور (ت711هـ/1311م) أن "القضاء: الحكم وأصله: قضاي لأنه من قضيت... و الجمع أقضية... واستقضي فلان أي جعل قاضيا يحكم بين الناس... و القضايا الأحكام... والقضاء الفصل و الحكم... و قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه و الفراغ منه... و قضى الشيء قضاء: صنعه و قدره... والقضاء بمعنى العمل ويكون بمعنى الصّنع و التقدير..." (ابن منظور، 186/15).

و لمزيد بيان المعاني المتقدمة عمد الباحث إلى مطالعة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم و أحصى الآيات التي ورد فيها الجذر (ق-ض - ي) و عددها ثلاث وستون آية تنوعت فيها المشتقات من نفس المادّة وكذلك اختلفت معانيها حسب السياق القرآني و منها: (عبد الباقي، محمّد فؤاد، 1926، 546-547)

- ✓ معنى الأمر: نحو قوله تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ (الإسراء 23)
- ✓ معنى الإنهاء: نحو قوله تعالى: وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ ذَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ (الحجر 66)

- ✓ معنى الحكم: نحو قوله تعالى: فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ. (طه 71)
- ✓ معنى الإعلام: نحو قوله تعالى: وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقَ كِبِيرًا. (الإسراء 4)

- ✓ معنى الإرادة: نحو قوله تعالى: فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. (غافر 67)

ألاحظ بمطالعة هذه الآيات وغيرها ممّا ذكره محمّد فؤاد عبد الباقي (ت1386هـ/1967م) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أنّ القضاء إجمالاً يعني حكم الله تعالى في الأشياء على حدّ علمه بها وفيها أزلا سواء كانت خلقا أو أمرا أو إرادة. كما لا يفوتني أن أفرّق بين نوعين من الأمر الإلهي؛ الأول: الأمر التكليفي وهو الذي يخاطب به الله تعالى عباده وعلى ضوئه يطيعونه فيجازيهم أو يعصونه

فيعاقبهم. والثاني: "الأمر التكويني (الخلق) الذي يخبر عنه بالمشيئة الإلهية وهذا لا يتعلق بشيء إلا وجد على النحو الذي قدر أزلًا أن يكون عليه. وعليه فكل شيء في الوجود خاضع للأمر التكويني منفذ للإرادة الإلهية يستوي في ذلك الخير والشر والطاعة والمعصية والإيمان والكفر؛ فإن أتى العبد الفعل موافقا للأمر التكليفي سبي طاعة وإن أتى مخالفا سبي معصية وكفرا واستلزم الذم. والإنسان في كلتا الحالتين معبر عن الأمر التكويني المعبر عنه بالمشيئة الإلهية". (ابن عربي، 1946، ص130)

أما القدر في اللغة فقد ورد بمعنى القضاء والحكم ومبلغ الشيء. وهو أيضا مصدر من الفعل قدر يقدر قدرا، قال ابن فارس (ت395هـ/1004م): "القاف و الدال و الزاء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء و كنهه و نهايته، فالقدر مبلغ كل شيء. يقال: قدره كذا أي مبلغه. وكذلك القدر، وقدرت الشيء أقدره من التقدير، وقدرته أقدره. والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها". (ابن فارس، 1979، 62/5) هذا وقد أحصى محمد فؤاد عبد الباقي (ت1386هـ/1967م) في معجمه مائة و أربعة و ثلاثون (134) آية حوت مادة (ق-د-ر) و جاءت بمعاني مختلفة.¹

ألاحظ من خلال هذا العرض مدى الاتصال بين معنى القضاء ومعنى القدر؛ فكل منهما يأتي بمعنى الآخر، ومعاني القضاء يرجع رأسا إلى إحكام الأمر وإتقانه كما أن معاني القدر ترجع إلى التدبير والله تعالى قد قدر مقادير الأمور بما سبق به العلم وجرى به القلم وهذا يسوقنا إلى التساؤل عن المعنى الشرعي للقضاء والقدر بما هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم وعلمه بها أنها ستقع على صفات مخصوصة و في أوقات مخصوصة و كتابته تعالى لذلك و مشيئته له و وقوع حسب ما قدر و خلق. قال أبو حنيفة (ت150هـ/767م): "خلق الله تعالى الأشياء لا من شيء وكان الله تعالى عالما في الأزل بالأشياء قبل كونها وهو الذي قدر الأشياء وقضاها ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره وكتبه في اللوح

⁽¹⁾ راعى الباحث في تأصيل هذه الآيات حضور مادة (ق-د-ر) وإلا فإن الآيات التي تتحدث عن القدرة كثيرة ولا يسع المجال لذكرها مفصلة كون معانيها قد وردت مثبتة في مصطلحات أخرى كالاستطاعة والإرادة والمشيئة وغيرها...

المحفوظ"، (أبوحنيفة، 1999، ص29) وهذا يوجب على الإنسان أن يؤمن بالقدر و أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

و من معاني القضاء و القدر أيضا أن "القضاء هو علم الله في الأزل بالأشياء كلّها على ما ستكون عليه في المستقبل، و من ذلك سائر تصرّفات الإنسان الاختيارية والقسرية. و أمّا القدر فهو ظهور تلك الأشياء بالفعل طبقا لعلمه الأزليّ المتعلّق بها، و قد عكس بعضهم فجعل تعريف القضاء للقدر والعكس و الأمر محتمل و الخطب فيه يسير". (البوطي، 2001، ص37) وقد يظنّ البعض أنّ معنى القضاء و القدر إجبار الله عباده و قهرهم و قسرهم على ما قضى و قدّر ولكنّ الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء بل إنّ معناه الإخبار عن تقدّم علم الله بما يكون من كسب العباد و صدورهما عن تقدير عن تقدير منه جلّ جلاله و خلقه لها شرّاً كانت أم خيراً.

الاحظ أنّ من المحقّقين من ذهب إلى أنّه لا فرق بين القضاء والقدر و عليه يمكن أن يطلق كلّ منهما و يراد به الآخر أي إذا أطلق على أحدهما شمل الآخر ضرورة وإذا أطلقت لفظة القضاء وحدها فسّرت بالقدر. و من هنا يكون المعنى الشرعيّ للقضاء والقدر هو الإيمان بأنّ الله تعالى قد قدّر الأشياء في القدم و علم أنّ تلك الأشياء ستقع في أوقات معلومة و على صفات مخصوصة و كتابته لها و مشيئته لها و وقوعها على حسب ما قدّر و خلق.

و هنا أتساءل عن الفرق بين المدلول اللّغوي و المدلول الشرعيّ للقضاء والقدر. و للإجابة على هذا التّساؤل يكفي أن أبين أنّه بمطالعة كتب العلماء والمحقّقين تباينت أقوالهم على ضربين: أحدهما: أنّه لا يوجد فرق بين القضاء و القدر؛ فكلّ منهما يطلق و يراد به الآخر و ما بينهما هو علاقة تلازميّة إذ القضاء و القدر أمران متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر لأنّ أحدهما بمنزلة الأساس و هو القدر و الآخر بمنزلة البناء و هو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء و نقضه. وثانيهما: أنّه يوجد فرق بين القضاء و القدر بناء على جملة من الاعتبارات؛ فالغزالي (ت505هـ/1111م) مثلاً يرى أن هناك بالنّسبة لتدبير الله و خلقه ثلاثة أمور منها الحكم و هو التدبير الأوّل الكلّي و منها القضاء و هو الوضع الكلّي للأسباب الكلّيّة

الدَّائِمَة و منها القدر و هو توجيه الأسباب الكليّة بحركاتها المقدّرة المحسوبة إلى مسبباتها المعدودة المحدودة بقدر معلوم لا يزيد و لا ينقص. و قال: "فإذا فهمت أنّ هذه الآلات أصول لابدّ منها للحركة و أنّ الحركة لابدّ من تقدّرها ليتقدّر ما يتولّد منها فكذلك فافهم حصول الحوادث المقدّرة التي لا يتقدّم منها شيء و لا يتأخّر إذا جاء أجلها أي حضر سببها... فكذلك كل ما يحدث في العالم من الحوادث شرّها وخيرها نفعها و ضرّها غير خارج عن مشيئة الله بل ذلك مراد الله تعالى و لأجله دبر أسبابه". (الغزالي، 2003، 28-30) و هنا يؤكّد الغزالي أنّ إيجاد الله تعالى الأشياء عند وجود أسبابها غير أنّه قد يعترض عليه بأنّ الله غير مقيد بنظام السببية²، فله جلّ جلاله أن يظهر الأشياء في أي وقت و على أية صفة شاءها و لهذا يكون القدر ظهور الأشياء التي علمها الله طبقا لما علمه أزلا.

يعتبر الإيمان بالقدر تأكيد لمعنى العبوديّة والخضوع والانصياع للأمر الإلهي الكونيّ لأنّ من معانيه التّصديق بإحاطة علم الله تعالى بكلّ شيء خيرا كان أمّ شرا، نفعاً كان أمّ ضرّاً، وشمول إرادته لكلّ ما وقع ويقع وسيقع في الكون ونفوذ قدرته في كلّ شيء. ولا شك أنّ ذلك يؤكّد الكمال الإلهيّ ويحرّر العقل البشريّ والخرافات والأوهام التي طالما كبّلت رقيّه، وقد أكّدت هذه المعاني كلّ نصوص الوحي من قرآن وسنة.

ثانيا: دلالة القرآن على القدر

أخبر القرآن في مواطن كثير عن وجوب الإيمان بالقدر من ذلك قوله تعالى: **﴿إِلَهِ لَهُ مُلْكُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾** (الفرقان 2)، ومعنى قدره جعله على مقدار وحدّ معين لا مجرد التقدير من باب المصادفة، بمعنى خلقه مقدّراً أي محكماً مضبوطاً صالحاً لما خلق لأجله لا تفاوت فيه ولا خلل. وهذا يقتضي أنّه خلقه بإرادة وعلم وعلى كيفية أرادها وعيّنّها ومشيّئتها ارتضاها وهذا "كخلق الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتّديب واستنباط الصّنائع المتنوّعة ومزاولة الأعمال المفيدة. وكذلك كلّ حيوان

(السبب: في اللغة اسم لما يتوصل به إلى المقصود، وفي الشريعة: عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه. ² الجرجاني: التّعريفات، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1983، ص117.

وجماد خلق على الصّورة المقدّرة. بأمثلة الحكمة والتّديب لأمر ما، ومصلحته مطابقا لما قدّر له، غير متجاف عنه". (القاسمي، جمال الدين، 1997، 417/7)

و من توجهات الآية المتقدّمة أنّ لفظ (تقديرًا) ورد بصيغة مفعول مطلق ليؤكد أنّ الإحداث قد روعي فيه معنى التّقدير و أنّ الله قد قدّر الأجل و الأرزاق فجرت المقادير على ما علم و خلق دون خلل أو تفاوت حيث أوجد كلّ شيء و أحدثه إحداثًا راعى فيه التّقدير بقدر معين والتسوية بشكل محدد، وهبأه لما يصلح له من الخصائص والأفعال اللاتقة به، " فالإنسان مثلاً خلقه الله بشكل مقدر مسوّى في أحسن تقويم، وأوجد فيه من الحواس والطاقات والإمكانات للإدراك والفهم، والنّظر والتّديب، واستنباط الصنائع، ومزاولة الأعمال المختلفة، وكذلك الحيوان والجماد جاء به على خلقة مستوية مقدرة، مطابقة لما يراه من الحكمة والمصلحة والتّديب، ولما قدّر له غير منافر أو متجاف عنه. والخلاصة: أنّه قدّر كلّ شيء ممّا خلق بحكمته على ما أراد". (الزحيلي، وهي، 1418هـ، 11/19)

كما يؤكد قوله تعالى: وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا^ط (الأحزاب، 38) أنّ أمر الله الذي سبق وقدره كائن لا محالة؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولما كان من لوازم هذا المعنى أن يكون مضبوطاً محكماً كثرت الكناية بالقدر عن الإتيان والصدور عن العلم. ومنه حديث: «كلّ شيء بقدر، حتّى العجز والكيس، أو الكيس والعجز» (مسلم، 2655)، أي من الله. و اصطلاح علماء الكلام: أن القدر اسم للإرادة الأزلية المتعلّقة بالأشياء على ما هي عليه، ويطلقونه على الشّيء الذي تعلّق به القدر وهو المقدور كما في هذه الآية، فالمعنى: وكان أمر الله مقدراً على حكمة أَرادها الله تعالى من ذلك الأمر. (ابن عاشور، 42/22)

قال ابن عاشور (ت1393هـ/1973م): "والخلق أصله: إيجاد ذات بشكل مقصود فهو حقيقة في إيجاد الذوات، ويطلق مجازاً على إيجاد المعاني التي تشبه الذوات في التميز والوضوح ... فإطلاقه في قوله: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ من استعمال اللَّفْظ في حقيقته ومجازه. وشيء معناه موجود من الجواهر والأعراض، أي خلقنا كلّ الموجودات جواهرها وأعراضها بقدر. والقدر: بتحريك الدّال مرادف القدر بسكونها وهو تحديد الأمور وضبطها. والمراد: أن خلق الله الأشياء مصاحب لقوانين جارية على الحكمة، وهذا المعنى قد تكرر في القرآن". (ابن عاشور، 44/22)

وقال ابن عجيبة (ت1224هـ/1809م) في تفسير الآية: "إنا كل شيء خلقناه بقدر أي: بتقدير سابق في اللوح قبل وقوعه، قد علمنا حاله وزمانه قبل ظهوره، أو: خلقناه كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة". (ابن عجيبة، 1999، 535/5)

كما ورد في القرآن ما يؤكد أنّ للإنسان اكتساباً و من أمثلة ذلك قوله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقرة 285) و ربّما ظهر في الآية الواحدة التعارض في المعنى مثل قوله تعالى: أُولَئِكَ أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (آل عمران 165)

أكد مونتجمري وات (ت1427هـ/2006م) على فكرة مفادها أنّ النّاظر للقرآن كوحدة متكاملة يلاحظ تلك الهيمنة المقدّسة لله تعالى خاصّة فيما يتعلّق بالخلق و الرزق والأجل، كما نجد ما يشير إلى مسؤوليّة الإنسان عن أفعاله واستخلص ذلك من الآيات التي يفيد ظاهرها التعارض فيما يتعلّق بالمشيئة و الخلق، و حشر لتأكيد فكرته سلسلة من الأفكار و الآيات التي تؤكد معنى الهداية GUIDANCE و الإضلال LEADING ASTRY والخذلان ABANDONMENT واللطف FAVOUR و العون SUCCNOR. وخلص إلى أنّ هذا التعارض له ما يؤكّده إذ إنّ النصّ الدينيّ هو نصّ منفتح على جميع الثقافات. (Montgomery, 1964, 46-51)

و لا شك أنّ القرآن حينما حوى آيات الجبر أراد استمالة طائفة الدهريّة و من هنا "فإنّ إصرار القرآن الكريم على عظمة الله و هيمنته و قوّته لا يعني في الحقيقة فرض اتّجاه عمليّ محدّد، فالله هو الخالق المتسامي الذي يمكن أن يلجأ إليه المرء و يلتمس حماه : قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ مِمَّنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (يونس 108) ، فمعنى الاعتماد على الله – كما هو وارد في القرآن الكريم- لا يمكن أن يكون دافعا للتبلّد أو عدم التّفاعل ما دام الله سبحانه و تعالى يضع على كاهل البشر واجبات كلّفهم بها عن طريق رسله". (مونتجمري، 1998، ص69)

ثالثاً: دلالة السنّة على القدر

يمثّل الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان لهذا تواترت الأحاديث النبويّة التي تؤكّد و ترسّخ هذه العقيدة و لعلّ أشهرها حديث جبريل الذي رواه عبدالله بن عمر عن أبيه. (مسلم 8) وفي شرحه على صحيح مسلم يقول النووي (ت676هـ/1278م): "واعلم أن مذهب أهل الحقّ إثبات القدر ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدّر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنّها ستقع في أوقات معلومة عنده وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى وأنكرت القدريّة هذا وزعمت أنه تعالى لم يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها وأنّها مستأنفة العلم أي إنّما يعلمها سبحانه بعد وقوعها وكذبوا على الله تعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً". (النووي، 2005، 154/1)

أخرج مسلم (ت261هـ/875م) في صحيحه: عن طاوس، أنّه قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ، يقولون كلّ شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز». (مسلم، 2653) و روى الترمذي (ت279هـ/892م) في سننه: عن علي قال: قال رسول الله: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله بعثني بالحقّ، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر». (الترمذي، 2145) فالمراد بالحديث نفي أصل الإيمان عمّن لم يؤمن بهذه الأربع: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ويؤمن بالموت: أي فناء الدّنيا، أو المراد: اعتقاد أن الموت يحصل بأمر الله لا بفساد المزاج ، ويؤمن بالبعث بعد الموت، "كما يجب الإيمان بالقدر" (الكشميري، 2004، 384/3) وأنّ كلّ ما يجري بقدر الله تعالى وقضائه، ونفي أصل الإيمان عمّن لم يؤمن بهذه الأمور يدلّ على وجوب الإيمان بها. و روى النسائي (ت303هـ/915م) حديث جبريل بطريق آخر وفيه أثبت القدر. (النسائي، 4991)

تثبت هذه النصوص و غيرها أركان الإيمان الستة و منها الإيمان بالقدر خيره و شره، و قد روي أنّ النبي نعت من يردّون القدر من أمته بأنهم مجوس هذه الأمة التي يجب عليها محاربة هؤلاء أينما ثقفوا. و النصوص الدالة على علم الله و قدرته ومشيتته وخلقته تدلّ على قدره تعالى ، فالقدر يتضمّن الإيمان بعلم الله ومشيتته وخلقته، وقدرته لا يعجزها شيء، ومن أسمائه تعالى القادر والقدير والمقتدر، والقدرة صفة من صفاته. فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر. و القدير فعيل منه، و هو للمبالغة، ومعنى القدير الفاعل لما يشاء، على قدر ما تقتضيه الحكمة لا زائدا عليه، ولا ناقصا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى و في هذه الأحاديث كلّها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر خيره و شره، وأنّ جميع الوقائع بقضاء الله تعالى وقدره خيرها وشرها ونفعها وضررها.

و من هنا يتّضح أنّ القدر هو تقدير الله السابق لكلّ شيء سيحدث في الكون حتى و إن كان كيسا أو عجزا و كلّه مكتوب كتابة سابقة على الحدوث و حجة ذلك قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا. (الحديد 21) وقول الرسول كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ، يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء». (مسلم، 2653)

وعلى هذا الأساس كان بعض الصالحين يقول إنّنا لا نجد حلاوة الإيمان حتى نعلم أنّ ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا؛ و قد قال رسول الله لابن عمّه عبدالله بن عباس رضي الله عنه: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك

بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». (الترمذي، 2516)

خاتمة:

وبعد هذا انتهى البحث إلى النتائج الآتية:

❖ تأكيد أنّ الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة والتصديق به هو المقياس الحقيقي لمدى الإيمان بالله تعالى وهو اختيار قوي لمعرفة يقين العبد بخالقه وما يجب في حقّه من صفات الكمال والجلال. ومسألة القدر كثر الجدل حولها من أبناء الملة لما وجدوه من طبيعة بعض آيات النصّ الدينيّ فضلا عن الأحداث التاريخيّة التي ألقت بظلالها على المسلمين في فترات زمنيّة متقدّمة من تاريخ الإسلام السياسي والدينيّ، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن علل نشأة القول بالقدر.

❖ توضيح أنّ شعور الإنسان بأنّ له القدرة على فعل الفعل أو الامتناع عنه فضلا عن شعوره بأنّ له إرادة تمكّنه من فعل ما يريد وترك ما لا يريد من الأفعال الاختيارية ولكنّ ذلك لا يمنع شعوره بقوة خفيّة قادرة على دفع الإنسان نحو الفعل مثلما هي قادرة على الحيلولة دون تحقّق إرادته من فعل الفعل. هذا ما يوهم بوجود تنازع في الإرادات الأمر الذي ازداد تعقيدا مع وجود آيات كثيرة يفهم من ظاهرها أنّ الإنسان حرّ مخيّر وبين آيات أخرى ظاهرها يوحي بأنّ الإنسان مجبر أو هو كالرّيشة في مهبّ الرّيح لا يملك من أمره شيئا.

❖ إبراز كثرة التساؤل عن أفعال العباد وعلاقتها بمشيئة الله وقدرته: فهل النّاس مجبورون عليها أم أنّ لهم قدرة؟ وإذا كان الأمر كذلك فما حدود القدرة

البشريّة مقارنة بالقدرة الإلهيّة؟ أي كيف يوفّق الإنسان بين كون فعله داخل تحت عموم قدرة الله ومشيّئته وبين كونه قادر على الفعل أو الامتناع عنه؟ وهل أنّ أفعال العباد مستثناة من عموم مشيئة الله وقدرته؟

❖ توضيح أنّ هذه الأسئلة وغيرها لم تكن وليدة ترف فكريّ في المجتمع الإسلاميّ بقدر ما كانت نتيجة لتفاعل ثلاثيّ يجمع الإنسان بالنصّ والواقع ممّا يدعونا إلى التساؤل عن بواعث وعلل البحث في أفعال العباد.

الهوامش:

- الأزهرى، أبو منصور، تهذيب اللّغة، تحقيق محمّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط/1، 2001.
- البوطي، محمّد سعيد رمضان: الإنسان مسير أم مخير، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط/2، 2001.
- الجرجاني، التّعريفات، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1983.
- الجوهري، الصّاح، تحقيق أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987.
- العسكري، الفروق اللّغويّة، تحقيق محمّد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنّشر والتوزيع، القاهرة - مصر، د.ت.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- عبدالباقى، محمّد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة-مصر، 1926.
- ابن عربي: فصوص الحكم، تحقيق أبو العلاء عفيفي، دار الفكر العربي، القاهرة-مصر، د.ط، 1946.
- ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر، 1979.
- أو حنيفه: الفقه الأكبر، مكتبة الفرقان، الإمارات العربيّة، 1999.
- الغزالي، أبو حامد: الأربعين في أصول الدّين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق، صحّحه: عبدالله عبد الحميد عرواني، مرا: محمّد بشير الشقفة، دار القلم، دمشق-سوريا، ط/1، 2003.
- القاسمي، جمال الدين: محاسن التّأويل، تحقيق محمّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط/1، 1997.

■ الزحيلي، وهبة: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1418هـ.

■ ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تح: أحمد عبدالله القرشي رسلان، طبع على نفقة د. إحسان عباس زكي، القاهرة، ط/1، 1999.

■ مونتجمري، وات: القضاء والقدر في فجر الإسلام وضحاها: القرون الثلاثة الأولى، ترجمة د. عبدالرحمان عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998.

■ Philosophy and Social Structure in :Montgomery, Watt
.Quarterly), 1964 (The Islamic Almohad Spain